75-960931

الفارابي عدد خاص

المورد

مجلة تراثية فصلية . تصدرها وزارة الاعلام - الجمهورية العراقية - المجلد الرابع - العدد الثالث ١٣٩٥ - ١٩٧٥

ما وراء الطبيعة والسياسة

في تفكير الفارابي

للاسلامياتي الفرنسي : روجيه ارنالديز

ترجمة

د. اكرم فاضل

لقد ظهرت ترجمة فرنسية هامة لكتاب الفارابي « آراء اهل المدينة الفاضلة » باقلام الاب المحترم جوسن والاستاذين يوسف كرم وج شلالا . وبهذه المناسبة سيكون من المفيدوالمناسب ان نضع تحت مجهر الفكر مشكلة الفلسفة السياسية ، كما تضع هي نفسها أمام المفكر المسلم الكبير ، وذلك في ملتقى الموروثات الروحية، منتقلين في الوقت نفسه الى مصنف صغير من مصنفاته هو رسالة : « السياسات المدنية » .

يبدأ الاول من هذين الكتابين والاخر بملاحظات ميتافيزيقية صرفة عن العلة الاولى للاحد .

ونتبين هناك شكل التفكير الافلاطوني الجديد عن تدرج الكائنات الهرمي . في المدينة الفاضلة نشهد الانبعاثات المتلاحقة لمختلف المعقولات والمجالات الكونية حتى كرتنا الارضية. وفي رسالة « السياسات المدنية » ينطلق الفارابي من الانسان ، فيرينا كيف يترتب عليه ان يقهر القوة الهمجية ، الحيوانية ، الكامنة فيه ، وذلك لتقوية الهيمنة العقلانية ، وانه في حاجة والحالة هذه ان يعلم بوجود الخالق . وعلى ذلك فبعد الاسباب ، ينبغي عليه ان يتوقف لدى مبدأ اول . ذلك ان مبدأ العلية الدراجة لا معنى له ، والسلسلة العلية اللامتناهية تهدم امكانية العلم . وهكذا فان ثمة علة أولى هي الله الاحد المتفرد في ذاته .

وكما نرى ، فان الطريقتين بالغتا الاختلاف. ولا ريب ان الطريقة الاولى هي من استلهام افلاطوني ، والطريقة الثانية هي من استلهام ارسطوطاليسي . ونحن نعلم أن الفيلسوف العربي لم يجد من تعارض بين هذين الموروثين . وسنعود الى هذا الموضوع . على ان الامر الاكيد هو ان هذين الكتابين اللذين نأخذ بتفحصهما لا يضعان نفسيهما في نفس الموضع من جانب وجهة النظر : فالاول يقع فى المطلق وينفض الغبار عن الملامح الرئيسية لمدينة مثالية . والثاني يظل في تماس مع المحدثات الانسانية ولكن في كلتا الحالتين ، لا يمكن ان توجد سياسة دون معرفة ميتافيزيقية . والسياسة هنا ، كما هي لدى افلاطون ، عملية ونظرية هي مسالة معرفة ، لا معرفة تجريبية ومحدودة لغرض خاص ، ولكن معرفة شاملة معانقة للحقيقة كلها .

ورغم ذلك ، فاذا كان المبدأ هو هو لدى الفارابي وافلاطون ، فان التطبيق يختلف اختلافا كليا . ذلك ان المفكر اليوناني يرى ان الخير الاسمى يمسك بمفتاح كل نظام وكل اجراء فهذا الخير يسطع سطوع الشمس على المدينة المدركة ، التي ستكون المثال الذي تحتذيه مدننا الارضية واسس العدالة المكين لقوانينها وشرائعها . وكما ان الخالق فطر العالم المحسوس ، وعيناه مسلطتان على النموذج المثالي فكذلك السياسة ستضع بعلمها « الملكي » دستورا بعد ان تكون قد اخذت جوهريات الامور بعين الاعتبار . والفارابي لم يستطع سلوك الدرب نفسه . فقبل كل شيء . وكما برهن على ذلك الدكتور ابراهيم مدكور ، ان تنامى الافلاطونية الجديدة المزوجة بالتأثيرات الارسطوطاليسية ، كان قد ادخل مع مسرى تحولاته استمرارية في العالم ، حيث افلاطون قد احتفظ بحائل بين العالم المدرك والعالم المحسوس . فلم

يعد ثمة موضع للبارىء المادي . وموازاة لهذا فان مدينة الفارابي ، بالغا ما بلغت فاضليتها ، لن يفكر بها مفكر على انها عمل ابداع بشرى على مثال الهي . وهي ليست المعادل المعنوي لاشادة مدينة من قبل مهندس معمارى . واذا لم تكن لها طبيعة خاصة بها ، بين الكائنات الاخرى في الطبيعة ، فانها مكتوبة في صلب الطبيعة واذا كان يترتب على الطبيعة البشرية ان تلعب دورها فيها ، فالاقل ان تبنيها من كل قطعة تقع تحت يديها والاكثر استجابة لمقتضيات طبيعة تريد ان مجمّعا بشريا ينبغي الا يكون محكوما باوالية Mécanisme مادية .

ومن جهة اخرى على الاخص ، فان (خير) افلاطون ، شأنه كذلك شأن (احد) افلوطين ، وهما محض غرضين للتأمل الذهنى ونهايتا عروج بدرجات هي بين بين ، نقول ان خير افلاطون واحد افلوطين هما بعيدان عن التطابق والتماثل مع السبب الاول ، وهو اله الفارابى ذلك لان القضية هنا هي قضية اله الدين الاسلامي ، وان الوحي واللاهوت على وفاق في تسمية الله الواحد الفرد الصمد .

انه رب ابراهيم ، ولا يقوى احد على الوقوف بوجهه . وعلى هذا فان الفارابي لا يرى ان الانسان جدير بتأمله باتحاده به في عمليتي المعرفة والحب . ولا يتحد به الفهم البشرى ، وانما العقل الفاعل ، الذى هو الوسيلة التي يستعين بها الخالق بغية الايحاء والالهام .

وعلى هذا فان مدينة الفارابي لن تكون نسخة لمثال تدركه الحواس تأمله مشرع فيلسوف . وان القيم السياسية والاخلاقية لن تكون مضمونة بواسطة معرفة جلية واضحة للخالق . نحن نراه بوضوح وجلاء من خلال سنة الاسماء التي يمكن ان يخلعها الانسان على الله : وهذه المسألة تناولها البحث في المدينة الفاضلة وفي رسالة « السياسات المدنية » والاسماء التي تنطبق على الله ليست كلمات حرية بالتعبيرات بصورة مناسبة وبشكل لا غموض فيه ولا لبس ولا ابهام عن جوهره ذلك لان اللغة البشرية تنطلق على الدوام من المعرفة المحسوسة . ولكن بوسعنا ان نختار من بين هذه اللغات تلك التى نراها قد وصلت الى أعلى درجات الكمال بيننا . ينبغي علينا اذن ان تكون لدينا القدرة على التمييز بين مراتب القيم في هذه الدنيا ، بصورة مستقلة عن معرفتنا بالله .

ولكن اذا كان الامر على هذه الشاكلة، فما هي جدوى المعرفة الميتافيزيقية بالاحد وفيوضاته الربانية ؟ اليست هذه الافلاطونية الجديدة كلها مزق مجلوبة وعقيمة ؟

ان رسالة « السياسات المدنية » بابسط سطورها تجعلنا نقبض باصفى سطوع على الخطة العامة للنظرية . الله لا يمكن ان ينفض يديه من كل ما يتولد عنه عن طريق الفيوضات الالهية . والكائنات المادية للعالم الارضي لابد لها من مراعاة الشريعة التي نصت عليها الطبيعة . ولكن ثمة كائنات اخرى ، هم الاناسي ، الذين هم بطبيعة الحال قد وهبوا الارادة ، واعطوا ملكة الاختيار ومنحوا سليقة الرغبة في السعادة . هؤلاء لا يجدون قانون غائيتهم الخاصة جاهزة من قبل في النظام الطبيعي ، ولأجل الا تكون قراراتهم الحرة تحكمية تعسفية ، فان الله بصفته العناية الربانية للكون ، يترتب عليه ان ينير امامهم السبيل . وعلى هذا ، فاذا كان في مكنون كل انسان ، كما في سريرة كل مخلوق ، يتواجد فى هذه الدنيا ، نزوع نحو الافضل وصوب الاكمل ، فان بعض المخلوقات قد بلغت درجات أعلى من غيرها في هذا السلم التدرجي. والى هؤلاء يتوجه الله ليجعل منهم ادوات التشريع بين امثالهم من الناس : هؤلاء هم الانبياء .

هذا العرض من رسالة « السياسات المدنية » لا يسمح بتدخل مختلف اوساط الفيوضات . ونستطيع والحالة هذه اذن أن نرى بعض العباد لا طائل تحتهم .

ولكن في بعض الكلمات من نفس النص ، يلفت الفارابي انتباهنا الى عدم كفاية وجود النبي المشرع لتواجد المدينة الفاضلة . ينبغي بالاضافة الى ذلك ان يوعى الاناس الاخرون برسالته . ويقول لنا تأسيسا على ذلك « ورئيس المدينة الفاضلة ليس يمكن ان يكون اى انسان اتفق . لان الرئاسة انما تكون بشيئين : احدهما ان يكون بالفطرة والطبع معدا لها والثانى بالهيئة والملكة الارادية .. واذا حصل ذلك فى كلا جزئي قوته الناطقة ، وهما النظرية والعملية ثم في قوته المتخيلة ، كان الانسان هو الذى يوحى اليه . فيكون الله عز وجل ، يوحي اليه بتوسط العقل الفعال ، فيكون ما يفيض من الله ، تبارك وتعالى ، الى العقل الفعال يفيض منه

ان المدينة قائمة باسسها على المواطنين بالنسبة لقيمتها ، فانها تمونهم بكمية كبيرة من السعادة وبكمال في السعادة ، بحيث لا يستطيعون بلوغ هذه المكانة بانفسهم وحدها خارجا عن اتحادهم .

وثمة مقايسة اعمق هي مقايسة بالجسم : انها في قلب جمهورية افلاطون ، وينبغي ان نعترف بان مقارنة المجتمع بالجسم آتية بطبيعة الحال من العقل . ومع ذلك فاذا بقينا داخل هذه المقايسة فينبغي ان نلاحظ خاصية لطيفة في الفسلجة الفارابية . فالقلب هو العضو المركزي. فهو يوزع الطاقة الحيوية بشكل حرارة . ولكن هذه الحرارة يجب ان تقاس على كل وظيفة ، وهناك دور الدماغ . وهاتان العمليتان لا يمكن ان تودعا الى انسانين مختلفين ، ولكن رجلا واحدا يجب ان يجمعهما ، كما يجمع الحكمة والنبوة، وبدون هذا فان هذه المدينة لن تكون مدينة مثلى . وبوصفه قلبا فان الرئيس اذن له نشاط شامل فهو يبعث الحياة في مجموع الجسم . ولكن بوصفه دماغا فانه مرتبط ارتباطا وثيقا بكل عضو من الاعضاء ، فهو يسهر عليه خاصة ويجددقواه عندما توشك على الانهيار .

وعلاوة على ذلك فان المقارنة بالجسم لها حدودها : كل وظائف الجسم طبيعية. وفي المدينة هي ارادية . ولا ريب ان حرية الاختيار حين لا تكون مستنيرة تنجب هذه المدن الفوضوية حيث يفتكر الافراد ان الحرية تنحصر في عمل ما يحلو للانسان ان يعمله . ولكننا راينا بواسطة الرسالة ان الحرية ليست لدى الفارابي القدرة على الاكتفاء الذاتي . فالجبرية الطبيعية تلائم اكثر ما تلائم في هذه الحالة ، لان كل كائن آنئذ سيتبع شرعته . والكرامة التي تمنحها للانسان نستطيع ان نقول انها هي التي تعطيه نوعا من الحق في حكمة العناية الالهية : بالتحديد لا يدع الله العبد وشانه وهو الذي حباه بالحرية . فالشرع ليس اذن لائحة من لوائح الشرطة مفروضة على الناس . انه علامة من علامات الرعاية الالهية . وهذا الطابع للرعاية والاحسان في الشرع يجب ان يتواجد في المدينة الفاضلة . واذا كان على كل شيء ان ينصب في بحر اهدافه فان الحكيم – النبي الذي يدير هذه المدينة ليست له لا ارادة خاصة ولا ارادة عامة . انه لا يبحث بالاضافة الى ذلك عن صالح المدينة بوصفها مدينة ، ذلك لانه يعرف خطأ الوثنية السياسية الذي يفضي بصورة مستقيمة الى هذه الاشكال الرذيلة التي يدعوها الفارابي بالمدينة الفاسقة ومدينة التغلب .

ان ما ينشده الرئيس هو السعادة العظمى المثلى لكل واحد من اعضاء المدينة . واذا كانت السعادات في الواقع تتميز وفق النوع والكمية والكيفية ، ففي القانون لا يوجد الا سعادة واحدة هي قمة السعادات الممكنة ، والتي تستند الى الى معرفة الحاجات الحقيقية للانسان ، والتي تنتعش في معرفة النظام الكوني الصادر عن الله، والنظام الاخلاقي الذي امر به الله ، والموحى به الى انبيائه والمبلغ بواسطتهم . وخلاصة القول ان المعرفة هي ينبوع السعادة والسعادة نفسها .

ومما يبعث على العجب ان نتبين باية مهارة حاول الفارابي ايقاع المصالحة بين فردية نفعية وسلطة ، ليست مطلقة بالمعنى الجارى للعبارة ، وعلى الاقل قوية في الواقع ولا تناقش من جهة القانون . وهو بهذه العملية قد منح تعبيرا فلسفيا للاتجاهات العميقة للامة الاسلامية البدائية ام المؤمنين الاصفياء . وقد سبق لافلاطون ان اراد ان يبني جمهوريته على القياس مناقضا اللاقياس للجمهورية الفارسية . وهي كذلك التأثيرات الفارسية في السياسة التي اجتث جذورها الفارابي من مدينته . ولكن في حين ان المفكر الاغريقي لم يستطع تجنب طغيان حكومة العقل ، فان الفيلسوف المسلم وجد في المشاركة الروحية الدينية للرئيس والاعضاء حلا انسانيا للغاية ، وبصورة جوهرية اخلاقيا، ولكن واأسفاه ! هذا الحل مثالي للغاية . وهو لا يخفى ان المدينة الفاضلة ليست الا مدينة مثالية .

والرسالة عن الحكومة تقع في احوال اكثر محسوسية . فالفارابي في كتابه الاخر يشير الى مختلف الانواع من المدن الفاسدة . وينشىء بذلك قائمة ، مستندا طبقا لنظريته ، على اراء سكانها . ففي مجتمع واقعي نستطيع ان نقول ان جميع الاراء تكون ممثلة . وعلى ذلك فان مجتمعاتنا هي امشاج واخلاط بالنسب المتغيرة لكافة هاته المدن . فهو يصادف فيها مواطنين ينتسبون قانونيا الى المدينة الفاضلة . والى هؤلاء تتوجه الرسالة . فهي تقترح القواعد التي يجب ان يضعها الانسان الشريف موضع التطبيق في علاقاته مع رؤسائه . مع انداده ، مع مرؤوسيه .

هذه هي قواعد العناية التي تهدف لوضع

طمانينة الانسان الخير وسلامته بمنأى عن الاشرار ما وسعت القدرة . والاتجاه العام هو تجنب الشرور الكبرى وممارسةالانتهازيةوالتهرب من السعي لسيادة الخير المطلق . مثال ذلك، ينبغي العلم ان ارادة الملوك هي كالسيل الذي يهبط من الجبل فيكتسح كل شيء . ومن العبث الوقوف بوجهه لسد الطريق امامه وتغيير مجراه . اذن فسيستعمل الناس وسائل غير اعتيادية لتوجيه ارادة الامراء الجهة التى يرتأيها الناس . سيعملون خيرا نسبيا اقل مما لو اتجهت ارادتهم كلها نحو الخير بذاته ، ولكن هذا الخير مع ذلك مقدر باعتباره خير ما يحصل عليه واهون الشرور . وكذلك الامر تجاه المبغضين والحاسدين فنحن بادىء الامر نعجب من رؤية الفارابي لا يوصي بالبحث عن الوسائل لاصلاح هؤلاء : لا شك انه يرى انهذا الامر عقيمعديم الجدوى، ولكن ما هو مؤكد ، هو انه يروم عرضهم كما هم عليه . ينبغي على العكس تثبيتهم امام اعين الناس في بغضائهم وحسدهم ، لاجل ان يعرفوا بوصفهم اشرارا فلا يستطيعون الاضرار باحد . ولا نستطيع كبح جماح انفسنا من تقريب هذه القواعد من قواعد الخلق الموقت لديكارت : لدى كلا المفكرين نفس الحرص على انقاذ طمانينة اخلائهما ، ونفس الاحساس بالقيم النسبية للاشياء الانسانية ، ونفس الرغبة في تحديد جهودهما وقصرها على ماهما واثقان من القدرة على تحقيقه طبقا لخططهما .

***

ولكن بين كل هذه الروابط البشرية تكون الروابط التي ياخذها الفارابي بنظر الاعتبار بصورة اساسية ، كما هي الحالة بالنسبة لافلاطون وارسطو ، وكما هي الحالة بالنسبة لاعظم الفلاسفة كافة ، نقول ان اهم كل هذه الروابط هي علاقات الصداقة الخالصة . هناك اصدقاء اعتياديون يجب ان نعاملهم بحذر واحتراس وملاطفة ، دون استثارتهم ودون الوثوق والركون اليهم . والافضل ان نستميلهم كاصدقاء من تركهم اعداء . وفضلا عن ذلك فبوسعنا ان نؤمل جرهم الى حظيرة الصداقة الحقيقية . ولكن الانسان ينتعش مع الاصدقاء المخلصين ، بحيث ان ابنة ارسطو هذه المتجددة ، ونعني بها الصداقة ، تنتهي بان تحل في عالمنا الذي يعج بالنواقص محل المدينة المثالية ، لانها تقوم مقامها في عملية السمو بالانسان نحو السعادة الحقيقية . ان الاصدقاء يتبادلون النجدة بينهم ، ويتكاتفون ويتعاضدون ويمشون سوية صوب الحياة الارغد والفضيلة الاعلى والاشرف .

***

بمقدورنا اذن ان نستخلص بان المدينة الفاضلة اذا كانت من جهة الوجود محض مثال ، فان جوهرها يمكن ان يتحقق في افراد يعترف لهم بانهم ينتمون الى هذه المدينة المثالية نفسها ويؤلفون مجموعات من الاصدقاء . ذلك لان هذه المدينة ، كما راينا ، مصورة في الذهن بشكل تسكن فيه بكيانها التام في قلب كل انسان مخلص يريد حقا ان يحلق في جو الكمال . وعلى هذا فان الشيء الوحيد الذي علينا ان نعمله في هذا العالم هو بالتحديد زيادة عدد اصدقائنا الحقيقيين دون انقطاع ، وذلك لتشرق المدينة الفاضلة باشعتها عليهم وتسعد بهم ، المدينة التي نحملها في انفسنا .

***

ان نظام الفارابي في نظر المؤرخ الناقد للفلسفة نظام معمول من خرق ومزق .

وقد انكر المنكرون ان بالامكان الجمع بين افلاطون وارسطو ، والافلاطونية الجديدة والوحي القرآني . وبينوا الاخطاء التاريخية والالتباسات وتحريفات الاساتذة الاغريق . ومع كل هذا هم يدعون المجال لافلات شخصية مفكر حقيقي. انني اوءثر استنتاجات الدكتور ابراهيم مدكور : « لعلنا لا نجد في اي مكان مذهبا بالغ الانسجام الى هذه الدرجة ومتسلسلا على هذا النمط .. » وكذلك : « اننا تجاه مذهب جديد له شخصية خاصة . هناك الفارابية كما هناك الافلاطونية والارسطوطاليسية » . المذهب السياسي يؤلف مركزا ممتازا لدراسة الوحدة الاصيلة للفارابية . ففضلا عن ان جميع عناصر النظام تنصب فيه ، فاننا نجد على هذه النقطة الفيلسوف وهو يصارع مشكلة اهميتها اكثر من كونها نظرية ، بل اكثر من كونها عملية ، ذلك لانها متولدة مما هو اعمق في النفس البشرية ، مشكلة روابط العقل والايمان . وامان اهميتها وخطورتها ، فان البحث العلمي للمصاد هو ثانوية الدرجة ، ولكن ما هو معتبر هي الحساسية الذهنية والاخلاقية لمن يواجهها ويجابهها .

وتحت هذه الزاوية فان مذهب الفارابي هو فكر حي خليق باعظم الاهتمام واعمق العطف واشد الانجذاب .

دراستان سوفيتيتان

عن الفـــارابي

ترجمة وشرح وتعليق

د. جليل كمال الدين

[نقدم هنا دراستين سوفيتيتين لعاملـــينمن اشهر علماء الفلسفة والمنطـق المعـــاصرين في الاتحاد السوفيتي الصديق ، الذي يحتفل مـــع قطرنا العربي المناضل ، بذكرى الفارابي ، المعلم الثاني ، وصاحب الرؤية الشهيرة عـن المدينـــةالفاضلة ، والمجتمع البشري الفاضل . وفيما يلي بعض الملحوظات الهامة عن عملنا :

١ ــ ان الدراسة الاولى وعنوانها ، **النظـــرات الفلسـفية والاجتماعية ــ السياسـية للفـارابي » بقلم البروفسور س. ن. غريغوريان .**

٢ ــ اما الدراسة الثانية فعنوانها « **الفارابي ...بين مناطقـة عصـره » بقـلم البروفسـور آ. او. ماكوفيلسكي .**

٣ ــ والدراستان متكاملتان تفصل الاولـــى في فلسفة الفارابي فيما تفصـل الثانيـة في منطـق الفارابي ، وقد ذكر البروفسور غريغوريان كتاب ماكوفيلسـكي « تاريـخ المنطـق » ضمـن مصادر بحثه .

٤ ــ وقد اعتمدنا كتب الفارابي نفسه (المنشورة) والتي اشـرنا اليها .

٥ ــ وعلمنا هوامشنا بمثل هذين القوسين ( ) اما هوامش البحثين فمرقمة بين معقوفـــين [ ] وسترد في آخر البحث المعين .